٥ – رحلة السيد إلى مكة عن طريق الهند ثم سفره إلى أفغانستان عن طريق طهران ومشهد

وصل السيد إلى بوشهر ، وكان من أهم ما حدث في هذه المدينة إعجاب كبير علمائها الشيخ محمد باقر خان البواناتي به واعتقاده في صحة آرائه ، واتباعه لنصائحه وإرشاداته . وكان الشيخ محمد باقر هذا يسمى « يوحنا » زمانه لما عرف به من علم وفضل شهدت بهما رسالتاه « الرسالة الشمسية اللدنية » و « الرسالة الصدرية الناسوتية » .

وكان السيد طول مدة إقامته في بوشهر ضيفا على الحاج عبدالنبى آل صفر . وقد ارتحل منها إلى الهند فمكث فيها سنة وبضعة أشهر ، فدرس هناك العلوم الأوربية والرياضية الحديثة . ومكث عدة أشهر في دار الحاج عبدالكريم بكلكتة ثم أبحر من هناك قاصدا مكة .

وقد طالت هذه الرحلة مدة ، لأنه كان يتوقف في البلاد التي يمر بها أياما .

وقد أقام في الحجاز مدة ، أخذ فيها يباحث العلماء والفقهاء وقد تحمل متاعب كثيرة في إقناعهم بضرورة إيجاد وحدة إسلامية .

وكانت زيارة جمال الدين لبيت الله الحرام في عام ١٢٧٤ هـ ، ثم رجع بعد ذلك إلى النجف وكربلاء ثانية ، وعزم على زيارة خراسان وأفغانستان عن طريق أسد آباد – مسقط رأسه – فلما وصل إلى أسد آباد أقام فيها ثلاثة أيام تلبية لرغبة والده ، قضى يومين منها في بيت الأسرة ، واليوم الثالث في منزل إحدى شقيقاته ، ثم غادرها في اليوم الرابع إلى طهران ، فأقام فيها بضعة أشهر حاول في خلالها تنوير أذهان الناس والأخذ بأيديهم إلى طريق الهداية والرشاد . واتصل به فيها ميرزا بابا الذهبي شيخ الطريقة الذهبية ففتن به من أول جلسة ، ونسي مقامه في الطريقة وأصبح من أتباع السيد ومريديه .

ثم غادر السيد طهران إلى خراسان ، وكانت حالته الصحية متوعكة ، وتصادف أن أغارت على قافلته في أثناء الطريق جماعة من التركمان ، ونهبت كل ما معها ، ولكن السيد قابل أفراد هذه الجماعة ووجه إليهم نصائح طيبة ، فندموا على ما فعلوا وردوا جميع الأموال التي نهبوها . ثم توجه السيد إلى مشهد حيث نال شرف زيارة قبر الإمام الرضا ، وقصد بعد ذلك إلى كابل ، وكانت هدفه الأول وهناك اتصل بأميرها وتوثقت الصلة بينه وبين الأمير دوست محمد خان ، وأخذ السيد يوجه كل عنايته لإرشاد الناس وهدايتهم ، كما فعل في الأماكن الأخرى التي زارها ، كما أخذ يدعو إلى الوحدة الإسلامية .

وأقام جمال الدين في أفغانستان ما يقرب من خمس سنوات ، ألف في خلالها كتاب « تاريخ الأفغان » باللغة العربية . ويعد هذا الكتاب من أروع آثاره ، وقد ساعد السيد على إيقاظ الشعب الأفغاني من سباته ، وتنوير بصيرته بفضل ما كان يوجهه من إرشادات ونصائح قيمة وهذا هو السبب الذي جعل الأفغانيين يذكرون اسمه بالخير ، ويحيطونه بالتكريم والتبجيل حتى الآن ، لأنهم يعدونه رائدا وقائدا لهم ، ويتباهون بنسبته إلى بلادهم ، وهي النسبة التي عرف السيد بها .

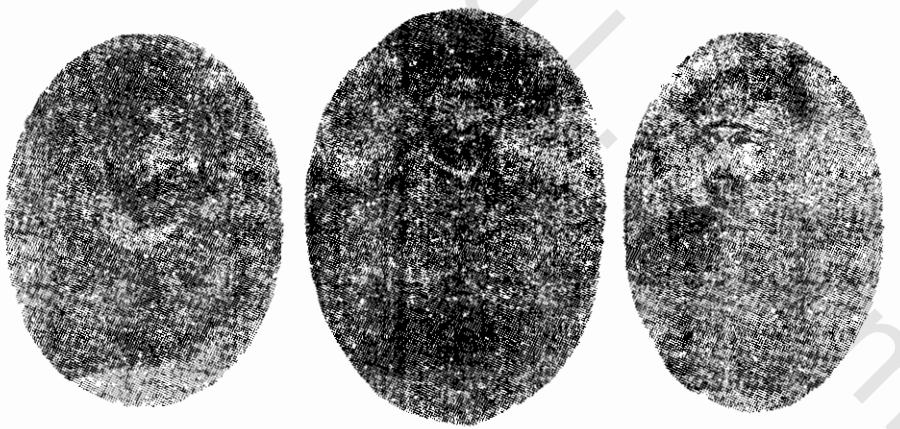

السيد في أزياء ثلاثة والصورة الوسطى تمثله في لباس علماء الشيعة الإيرانيين

وقد شغل السيد عدة مناصب كبيرة فى المدة التي قضاها في أفغانستان ، حتى قيل إنه ولي منصب الوزارة للأمير محمد أعظم خان ، وإن الأمير المذكور كان لايعمل شيئا إلا بمشورته . وقد كان السيد في صحبة هذا الأمير حينما حارب صهره وابن عمه الأمير دوست محمد خان في عام ١٢٧٩ هـ . ثم حدث أن توفي الأمير دوست محمد خان في تلك السنة ، ثم قامت حروب أهلية ذاعت أخبارها على صفحات الجرائد ، ثم أغار شيرعليخان على كابل – في عام ١٢٨٥ هـ – واعتلى العرش للمرة الثانية ، مما اضطر محمد أعظم خان إلى الرحيل إلى نيسابور (في إيران) ، كما رحل ابن أخيه الأمير عبدالرحمن خان إلى بخارى . ولكن السيد جمال الدين ظل مقيما في كابل فلم يأخذه خوف أو وجل من اعتلاء الأمير شير عليخان العرش ، ولم يتعرض له الأمير الجديد بسوء لمكانته وهيبته وصراحة قوله ، ولكن السيد عاد ففضل الرحيل من أفغانستان بحجة الذهاب إلى الحج ، فسافر عن طريق الهند لأن الأمير أخذ عليه العهد بعدم العودة إلى إيران ، خشية أن ينضم إلى الأمير محمد أعظم خان الذي كان قد لجأ إليها بعد فراره كما تقدم .

* * *

٦ – سفر السيد من أفغانستان إلى مكة ووصوله إلى الآستانة عن طريق مصر

وصل السيد إلى الهند في عام ١٢٨٥ وأقام فيها شهرا حظر عليه فيه أن يختلط بالناس ، ثم سافر منها بحرا إلى مصر فمكث فيها أربعين يوما اتصل في أثنائها بعلماء الأزهر وحدثهم بآرائه ، وما يراه من ضرورة إيجاد وحدة إسلامية ، ثم غير جمال الدين وجهته فعزم على زيارة إسلامبول بدلا من مكة ، فسافر إلى إسلامبول حيث وجد ترحيبا شديداً من عالي باشا الصدر الأعظم ومن فؤاد باشا ، وكانا من أبرز ساسة الأتراك العثمانيين في ذلك الوقت ، ونال بذلك الحظوة لدى السلطان .

وكانت قضية اليمن حينذاك تشغل أذهان السلطان ورجال دولته ، وكانت الآراء تختلف حولها ، ويحاول كل ذي رأي أن ينفذه مهما احتاج تنفيذه من جهد ووقت . فتعهد جمال الدين بإصلاح الأمور دون حاجة إلى جند أو مال ، واشترط أن يكلفه السلطان بذلك بتفويض منه ومن رجال دولته وزعماء شعبه ، وكان ميرزا حسن صديقا للسيد فنقل هذا المطلب إلى الجهات المختصة فخشي العظماء والزعماء أن تكون إجابة السيد إلى طلبه مدعاة للإقلال من نفوذهم ، فأشاروا بإبعاد السيد عن تركيا .

كما حدث شيء آخر ساعد على إبعاده هو أن تحسين أفندي مدير دار الفنون طلب منه أن يلقي محاضرة على الطلاب ، فألقى السيد هذه المحاضرة في حضور صفوت باشا وزير المعارف وحنيف أفندي وزير المعارف السابق – وسفير تركيا الأسبق في طهران – .

وقد أول شيخ الإسلام جملة من حديث السيد تأويلا يخالف الواقع ، مما أدى إلى إثارة الرأي العام ضده وهياجه[1] . وانتهى الأمر بأن أصدر السلطان أمرا بإخراج السيد من إسلامبول .

والواقع أن شيخ الإسلام حقد على السيد منذ وصوله إلى إسلامبول لما رأى الطبقة المثقفة في هذه المدينة قد تعلقت به ، لأنها رأته شابا عالما وفيلسوفا مصلحا ، فلم يطق هذا الشيخ المسن رؤية شاب إيراني له مثل هذه المنزلة في نظر الطبقة المستنيرة ، فأخذ يدبر له المكائد ، ويتربص به الدوائر ، وينتهز الفرص حتى بلغ غايته ، وكان السيد قد أدرك نياته ، وصمم على الرحيل قبل إخراجه .

وقد غادر السيد إسلامبول موليا وجهه شطر الهند عن طريق القاهرة ، فوصل إلى مصر في عيد النوروز .

* * *

(١) ذكر هذا الأمر بالتفصيل فذكرت المحاضرة واعتراض شيخ الإسلام على بعض ما جاء فيها في مقدمة كتاب الرد على الدهريين التي كتبها الشيخ محمد عبده .

٧ – وصول السيد إلى مصر للمرة الثانية ونشاطه فيها

لم يكد جمال الدين يصل إلى القاهرة حتى قابله رياض باشا رئيس وزرائها ، فأعجب بعلمه وفضله ، فأقام السيد في مصر والتف حوله علماء الأزهر وطلابه ، فأخذ يدرس لهم في منزله أولا ، ثم انتقل بعد ذلك إلى الجامع الأزهر ، وأخذت شهرته تزداد يوما بعد يوم ، وقوي نفوذه واتسع ، وعلت منزلته في النفوس ، وقد قام بتدريس الفلسفة الإلهية بصورة عملية ، ففتن به الطلاب وأحبوه حبا جما .

وقد أقام السيد في مصر ما يقرب من عشر سنوات أدى فيها خدمات جليلة لمصر والمصريين ، وكان من تلاميذه في أثنائها المهدي السوداني ، فقد درس عليه أربع سنوات ، كما استفاد أديب إسحق الكاتب المشهور من علمه كثيرا .

وإني – صفات الله خان ابن لطف الله خان مؤلف هذا الكتاب – أرى إتماما للفائدة أن أضيف في هذا المقام .

ما جاء في كتاب « كَفتار خوش يارقلي »[1] عن الخدمات التي أداها السيد لمصر في أثناء إقامته فيها .

وقد أعجب الشيخ محمد عبده – أكبر علماء مصر – في ذلك الوقت بشخصية جمال الدين ، فلازمه ملازمة الظل ونسي أهله وعشيرته وعزه وجاهه ،

---

(١) ألف هذا الكتاب المرحوم الشيخ محمد محلاتي الغروى وطبع بسعي واهتمام الأستاذ السيد محمود في المطبعة العلوية بالنجف الأشرف في سنة ١٣٤٠ ، ولو أن هذا الكتاب مؤلف في الحقيقة للرد على ادعاءات ميرزا على محمد الباب ولكنه يتضمن أيضا كثيرا من المعلومات التاريخية والجغرافية والاقتصادية والاجتماعية الخاصة بإيران وما بين النهرين وهو خير مثال يحتذيه علماء الدين الإيرانيين (إيرانشهر) .

فكان السيد شغله الشاغل ، فأخذ يدرس عليه الفلسفة ، وعلم الكلام ، والفقه والأصول ، والفلسفة الجديدة ، وأصول العصر الحاضر ومبادئه ، وسافر معه إلى أوروبا ، كما تأثر به عرابي باشا والمهدي وتلاميذه وأغلب المثقفين في مصر ، وكانوا جميعا يعملون لخير البلاد ، ورفاهية الشعب المصري ، ونجاته وحريته . وكان السيد يبدو وكأنه صاحب نفس عيسى ، ويد موسى ، فيؤثر فيهم تأثيرا قويا ، وقد أقدم هنا على تأسيس الحزب الوطني ، فهرع إليه الشباب المصري ، فكان لإرشاداته أثر كبير في تهذيب نفوسهم ، فغرس في قلوبهم حب الإسلام ، والعمل على توحيد كلمة المسلمين ، وأيقنوا أن اتِّباع نصائحه فيها حياة للأمة الإسلامية ، فلبوا دعوته ، وقدروها حق قدرها ، والتف حوله شباب المسلمين ، فافتتح الندوة المصرية التي كانت تضم ثلاثة ملايين نسمة من شباب المسلمين في مصر بمفتاح السعادة الذي كان في يده المباركة ، وانعقدت أول جلسة من جلسات الحزب الوطني المصري برئاسته ، وكان هذا الحزب دقيق التنظيم للغاية ، فلم يكن للصوص مجال بين صفوفه ، وكان محرما على أعضائه أن يتخذوه وسيلة للشهرة أو أن يتخلقوا بأخلاق الأجانب ، فكان الحزب بذلك ميزانا يزن الأشخاص ويفرق بين الغث والسمين ، وكان أعضاؤه بعيدين كل البعد عن العجب والأنانية ، مستعدين كل الاستعداد لبذل كل مرتخص وغال في سبيل رقي البلاد ورفعة شأنها ، وكان جمال الدين على رأسهم يدعوهم ويحمسهم .

وكان عدد أعضاء الحزب الوطني المصري ثلثمائة عضو في قول ، أو أقل من ذلك في أقوال أخرى ، وكان جمال الدين يطلع المجتمعين على حقائق ما في دين الإسلام المبين وشريعة خير المرسلين من سمو ، ورفعة ، في خطب نارية يلقيها بين الحين والحين ، ويبرهن على أن الإسلام أرشد الناس عن طريق كتابه المبين – القرآن الكريم – إلى ما فيه الرقي المادي والمعنوي للطبيعة البشرية .

وبين السيد أن أجدادنا وأسلافنا بلغوا أعلى مراتب العز والسؤدد حينما تمسكوا به ، وألموا بحقائقه ، وحققوا أهدافه .

فلما انحرفوا عن السير في هذا الطريق السوي ، ونبذوا أحكامه وراء ظهورهم ، سقطوا إلى هذا الدرك من الحياة ، لأن الله لايغير ما بقوم حتى يغيروا

ما بأنفسهم ، وأنه لا مجال إلى الشكوى من الأوربيين واتهامهم بأنهم سبب انحطاطنا ، لأن المسلمين لم يذلوا إلا بعد انحرافهم عن الطريق القويم .

ثم بين أن الوسيلة المثلى لخلاص المسلمين مما تردوا فيه إنما هي التمسك بحبل الله المتين كما بين القرآن .

وقد اعتلى السيد منبر الخطابة عند انعقاد الجلسة الخامسة عشرة للحزب الوطني ، وافتتح كلامه بقوله .

اللهم إنك قلت وقولك الحق : ﴿ والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وإن الله لمع المحسنين ﴾ .

وحيث إن دعوتي قد وجهت إلى هذه النفوس الزكية التي اجتمعت هنا فلبوها طائعين مخلصين لوجهك الكريم ، فاللهم أرشدني حسب قولك الحق إلى سبيل الهداية .

أيها السادة : اعلموا أن المدنية الإنسانية الفاضلة وأن الصراط المستقيم للسعادة لا يتحققان إلا بالقرآن .

فالقرآن الكريم هو الدستور المقدس ، وهو خلاصة أشرف الأديان ، والبرهان القاطع لخاتم الأديان السماوية إلى يوم القيامة ، وهو الذي يكفل السعادة في الدارين ، والنجاة في الحياتين .. فواه لنا كيف غفلنا عن حقيقته !.. .

وقد أخذ هذا الدستور بيد أسلافنا إلى طريق السعادة والمجد ، ورفعهم إلى السماكين رغم أنهم لم يكونوا في درجتنا من الحضارة ، فكيف تركناه وراءنا ظهريا واكتفينا بتلاوته على القبور في ليالي الجمع ، وجعل تلاوته وسيلة يشغل الصائمون بها أوقاتهم ، ويتسلى بها الأطفال في المكاتب ، واتخذنا منه التعاويذ والنذور والقرابين وجعلناه مطية للأيمان الكاذبة ووسيلة للتسول ، وزينة لرقاب الأطفال ، وقلائد العرائس ، ومعاصم الخبازين ، وحماية للمسافرين ، وسلاحا لمن أصابهم مس من الجن ، وزينة للحفلات وأقواس النصر ، وحرزا للمصارعين ، وسلعة للتجارة بين البلاد المختلفة ، ورأس مال لباعة الكتب ، وتبركا في الانتقال

من بيت إلى آخر ، وآلة في يد الشحاذين من أراذل الرجال والنساء في الطريق والشوارع .. فوا أسفاه !.. .

إنّ سورة من القرآن – هي سورة العصر – لا تزيد عن ثلاث آيات قد أدت إلى سعادة شرذمة من أصحاب الصفة ، فاستطاع أفرادها أن يحولوا بطحاء مكة التي كانت محطا للشرك ودارا للأصنام إلى بيت للتوحيد ، ومصلى للعبادة ... فوا لهفتاه أن هذا الكتاب السماوي المقدس المنزل من قبل الذات الإلهية ، والذي هو ذخيرة لكل السعادات الإنسانية قد انحط قدره ، وصار أقل في الأنظار من ديوان كليات سعدي وحافظ الشيرازيين ، وعمر بن الفارض ، والمثنوي لجلال الدين الرومي ، وصارت العناية به أقل من العناية بها ، فلم يستفيدوا من مواعظه وآدابه وحكمه ، رغم أن الأفواه والعيون تتفتح عجبا عند سماع أبيات من الشعر ، في الوقت الذي لا يأبه فيه إنسان بالقرآن عند تلاوته ، ولا يحاول تدبر معانيه .

أي وحقك .. سبحانك اللهم !.. إنك القائل وقولك الحق ﴿ نسوا الله فأنساهم أنفسهم ﴾ ... لقد نسيناك ، وحرمت مرآة قلوبنا من انعكاسات معرفة حقيقتك .. سبحانك اللهم لقد قلت وقولك الحق : ﴿ إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم ﴾ وقد حولنا وجوهنا عن طريق طاعتك ، فاستبدلت عزتنا وسعادتنا ذلا وهوانا .

فعليكم بذكر الله الأعظم ، وبرهانه الأقوم ، فإن نوره المشرق هو الذي به تخرج الهواجس ويتخلص من عتمة الوساوس ، وهو مصباح النجاة ، من اهتدى به نجا ومن تخلف عنه هلك ، وهو صراط الله القويم من سلكه هدى ومن أهمله غوى . عليكم بالفوز مما انتثر من لآلئ مقالات صاحبه عليه السلام لقوله صلوات الله عليه قائله « إذا أراد الله بقوم سوءا أقل منهم العمل وكثر فيهم الجدل » وقوله عليه السلام : ثلاث[1] لا يقل قلب امرئ مسلم : « إخلاص العمل فيه ، والنصيحة لأمراء المسلمين ، ولزوم جماعتهم » . المسلمون تتكافأ دماؤهم ، يسعى

---

(١) هكذا في الأصل .

بذمتهم من والاهم ، وهم يد على من سواهم . وقوله عليه السلام : « لا يزال الأمر في أمتي مالم يتخلقوا بأخلاق الفرس » . وأشباه هذه الغرر الزاهرة التي تضمن واحدة منها سعادة الأمم كلها والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته » .

وحينما نزل السيد من فوق المنبر وجد أن ثلث أعضاء الجلسة قد أغشي عليهم من فرط التأثر ، ووجد الباقين على وشك أن يفقدوا رشدهم فبكى السيد الكريم ، وأخذ يردد قوله : أي وحقك اللهم نسيناك فأنسيتنا أنفسنا ويظل يردد هذا القول حتى سقط وفقد صوابه ، وهكذا ظل الحاضرون ثلاث ساعات بين بكاء وأنين وإغماء .

ثم تقدم حسن عطا بك صهر خديوي مصر إلى السيد ورش على وجهه ماء معطرا ، فأفاق واختتم كلامه بقوله : « يجب على كل مسلم يبغي نجاة الإسلام والمسلمين أن يعمل بأحكام القرآن ويطبقها تطبيقا دقيقا ، وأن يقتدي بأسلافه من أهل الصدر الأول من المسلمين ، وأن يجعل دأبه خلوص النية ، وصفاء الباطن ، وخدمة المجتمع والابتعاد عن البخل والحسد والطمع ، وأن يلتزم بساطة العيش ، والعمل بالواجبات ، واجتناب المحرمات . فهذه هي الوسيلة الناضجة التي اتبعها أسلافنا فنجوا .

وقد تحمس الناس ، وكان أول عمل عملوه أنهم باعوا ما يملكون من أثاث وفرش ومن وسائل الركوب والترف ، وتبرعوا بثمنها لصندوق الحزب الوطني لينفق منها على المعوزين والمحتاجين والعجزة ، وفي سبيل إصلاح الأمة الإسلامية .

كما تعهد كل عضو من أعضاء الحزب أن يطيع الله وأن يطبق ما جاء في القرآن ، وأن يتلو حزبا منه كل يوم على الأقل ، وأن يعمل فيه فكره بتدبر وإمعان ، وأن يسير على الأسس الآتية .

١ – أن يؤدي الفرائض والنوافل ، وأن يلزم صلاة الجماعة .

٢ – أن يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر .

٣ – أن يدعو إلى الإسلام .

٤ – ألا يجادل أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن .

٥ – أن يحسن إلى الفقراء .

٦ – أن يسعف المحتاجين ويعينهم ما استطاع إلى ذلك سبيلا .

٧ – أن يصل الرحم .

٨ – أن يعود المرضى .

٩ – أن يتفقد أحوال أصحابه الغائبين .

١٠ – أن يرحب بالقادمين .

١٢ – أن يرشد الجاهل وينبه الغافل .

١٣ – أن يخلص نفسه من الخصال الرديئة ولا سيما العجب والأنانية ، وحب الذات وما شابه ذلك .

١٤ – أن يعفو ويصفح عن أخطاء الآخرين .

١٥ – أن يكظم الغيظ .

١٦ – أن يتجنب اللهو واللغو .

١٧ – أن يحمل كل عضو من أعضاء الحزب دفترا يسجل فيه المواد الستة عشرة الآتية .

(أ) الإحسان إلى الفقير .

(ب) الاستفسار عن الغريب .

(جـ) تحية القادم .

(د) تفقد أمور الغائب .

(هـ) الأمر بالمعروف .

(و) عيادة المريض .

(ز) صلة الرحم .

(ح) إرشاد الجاهل .

(ط) تنبيه الغافل .

(ي) مناقشة أهل الكتاب بالحسنى .

(ك) التوبة عن الفسق .

(ل) إزالة الرذيلة .

(م) العفو عن الخطأ .

(ن) كظم الغيظ .

(س) هداية الكافر إلى الإسلام .

(ع) أداء الحـق .

على أن يسجل كل منها في الدفتر على حسب هذا التسلسل وأن يأخذ كل إنسان نفسه بالعمل بها ، ثم يسجل الجميع هذا في سجل عام يضم جميع أعمال رجال الحزب الوطني حتى يعرف محصول الحزب حينما يعقد مؤتمره العام .

وقد قام أعضاء الحزب بتنفيذ هذه التعاليم ثم أحصوا ما حصلوا عليه من نتائج فوجدوه كالآتي .

١ – تسعون ألف تومان إيراني[1] جمعت من التبرعات النقدية للأعضاء .

٢ – بلغ عدد المرضى الذين عادهم أعضاء الحزب ألفا وخمسمائة مريض .

٣ – بلغ عدد الغائبين الذين تفقدوهم خمسمائة غريب .

٤ – عدد الحاجات التي قضوها اثني عشر ألف حاجة .

٥ – بلغ عدد الذين تابوا من شاربي الخمر وتاركي الصلاة خمسة وعشرين ألفا .

٦ – ترك جميع من كانوا في الإدارات الإنجليزية أعمالهم ، وانضموا إلى المجاهدين من رجال الحزب الوطني .

٧ – بلغ عدد الأكابر الذين تنازلوا عن ثرواتهم للحزب الوطني ، وتركوا حياة الترف خمسمائة .

---

(١) أي ما يساوي ١٨٫٠٠٠ جنية مصري في ذلك الوقت .

٨ – بلغ عدد من عوضوهم من التجار المفلسين ٧٥ شخصا .

٩ – بلغ عدد من مدوهم بالمعونة من أبناء السبيل ٢٠٦ شخص .

١٠ – بلغ عدد من اعتنق الإسلام من النصارى واليهود ١٢٠ شخصا .

١١ – بلغت مجالس الدعوة للإسلام ٤٤ مجلسا .

١٢ – بلغ عدد الحلول العقلية والاجتماعية التي أعطيت لمن طلبها ١٢٠ حلا .

وأدرك اللورد كرومر المستشار المالي البريطاني أن نفوذ بريطانيا آخذ في التقلص بدرجة عجيبة ، وأن تجارة الإنجليز كسدت كسادا شنيعا ، ورأى المبشرون في القارة الأفريقية أن ما عمله الحزب الوطني المصري يبلغ أضعاف ما فعلوه هم في سنوات عديدة ، وأصيب الموظفون الإنجليز بكثير من الفزع لأنهم رأوا أن المصريين لا يريدون التعاون معهم مما أصاب العمل بعقم شديد ، كما لاحظ أصحاب الشركات التجارية الإنجليزية ذلك وأن المصريين يعدونهم أعداء للإسلام والقرآن ، ولا يرغبون في التعاون معهم مما أصاب تجارتهم بكساد عجيب .

فكتب اللورد كرومر في تقريره إلى حكومته أن الحزب الوطني الذي يمسك بزمامه جمال الدين الأسد آبادي لو ظل يواصل نشاطه بهذه الطريقة ، فإنه سوف يقضي على التجارة الإنجليزية في مصر وإفريقية وآسيا كما يقضي على النفوذ الإنجليزي قضاء مبرما ، وبين أن وجود الحزب الوطني أشد عائق يقف في طريق هذه السياسة ، وأنه يجب القضاء على هذا الحزب قضاء مبرما .

وكتب في تقرير آخر يقول : إن الحزب الوطني هو أوضح مظهرلنهضة العرب منذ ثلاثة عشر قرنا من الزمان ، وهو يبرهن حقا على كيفية سيطرة العرب على ثلث المعمورة في أقل من ربع قرن .

وقال أعضاء المجمع الكنسي : لم يدر بخلد شخص شيء أعجب من أن سبعمائة مليون من النصارى المثقفين الأقوياء المجهزين بكل ما يلزم الإنسان في حياته يتقهقرون ويتراجعون أمام أربعين شخصا يقودهم درويش إيراني .

وكتب أحد الأطباء في مستشفى بور سعيد – وكان إيرلندي الجنسية – في كتابه فلسفة المجتمعات يقول .

« كنت قد سمعت أن الأشياء يمكن أن تتضاعف إلى مئات الأضعاف ، فإذا ضوعف مثقال من القمح حسب قواعد التضعيف الموجودة في خانات الشطرنج ، فانها تحتاج إلى ثلاثة آلاف مخزن ، كما تحتاج في حملها إلى ٣٦٠ ألف بعير ، أو أن المن التبريزي إذا ضوعف حسب القاعدة الشطرنجية المذكورة ، فإن الناتج يكون ٧٢٧٫٠٥٩٫٠٨٩ خروار[1] وهو يساوي مجموع محصول القمح في العالم كله ، ويحتاج في حمله إلى جميع الطرق الحديدية وسفن العالم كلها .

نعم قد سمعنا عن هذه القاعدة التصاعدية ولكننا لم نجد أكثر من هذه النسبة التصاعدية التي نتجت في مصر ، فإن رجلا إيرانيا جاء إليها ثم انضم إليه واحد هو الشيخ محمد عبده ، ثم استطاع أن يكون حزبا بلغ عدده في خلال تسعة أشهر ٢٠٫١٨٠ عضوا ، وأصبح يملك رأس مال كبيرا في المصارف ، وأصاب المصالح الأوروبية بأضرار عجيبة ، ولو ظل هذا الحزب يتوسع بهذه الطريقة فإنه سيشمل جميع سكان العالم بناء على هذه النسبة التصاعدية » .

وكتب رئيس شركة انجليزية إلى أحد الصيارفة في لندن يقول له .

« أخي العزيز ! إن تغلب السياسة الأوروبية اليوم في مصر بهذه الصورة ستغلب غدا في العالم كله ، فقد تقهقرت أمام جماعة لا يملكون إلا بساطة العيش والمثابرة في العمل ، وحب النوع » .

وكتب أحد الضباط البريطانيين إلى قرينته يقول .

زوجتي العزيزة : إن المجتمع الإسلامي تسوده نهضة وثابة تجعل الإنسان يعتقد أن الدول الأوروبية يجب أن تنفض يدها مما تحت أيديها من المستعمرات ، ويجب على الشعب البريطاني أن يجد له مأوى في مناطق القطب الشمالية أو الجنوبية » .

---

(١) وزن إيراني يساوي سدس طن .

وكان لهذه الأقوال جميعا أثر في نفوس أفراد الشعب البريطاني فأيقن الشعب أن بقاء الحزب الوطني فيه قضاء عليهم ، فسارع بتنبيه حكومته إلى ضرورة القضاء على الحزب الوطني المصري ، والتنكيل برئيسه قبل أن يستفحل شره ، فتعجز سياسة بسمارك الألماني وعلمه ، كما تعجز سياسة غلادستون وتدبير جراي والمدافع والقذائف الجوية والغواصات عن القضاء عليه ، لأن الخطة البديعة التي رسمها الحزب الوطني كانت مؤيدة من الله ، وقدرة الله لا تصل إليها قوة في الفلك ، ولا تدانيها مهارة الساسة والمهندسين والمخترعين .

ولذلك جن جنون الإنجليز فنكلوا بأعضاء الحزب الوطني ، ونفوا جمال الدين إلى أوروبا ، كما نفوا محمد عبده الذي كان مفتيا ثلاث سنوات ، وألقوا القبض على كثير من أعضاء الحزب الوطني ، ووظفوا بعضهم في دواوين الحكومة بمرتبات ضخمة ، وقضى الحزب الوطني نحبه وكان عمره لايزيد على تسعة أشهر وبضعة أيام ، وأخذ الأوروبيون يتنبهون بعد ذلك حتى لا تقوم في البلاد الإسلامية نهضات كهذه .

هذا مجمل ما جاء في « كَفتار خوش يارقلي » الذي كان من تلاميذ مدرسة السيد جمال الدين وأتباعه .

أما الأمر الثاني الذي اتخذ سببا لإبعاد السيد جمال الدين من مصر ، فهو أنه ظل طوال المدة التي قضاها يقوم بتعليم المسلمين وإرشادهم ، مما جعل العلماء الرجعيين ينقمون عليه ، لأنهم كانوا يستغلون جهل العامة وسذاجتهم في منفعتهم الشخصية ، فثاروا عليه لقيامه بتدريس فلسفة ابن سينا ، وإحضاره الكرة الأرضية إلى المسجد ، فألبوا عليه العامة . وكان الإنجليز ينتهزون الفرصة للتخلص منه بعد قضائهم على الثورة العرابية ، فانتهزوا فرصة غضب العامة ونفوه إلى الخارج ، فخرج من مصر هو وخادمه أبو تراب بصورة لا تتفق مع المبادئ الإنسانية وكان ذلك في سنة ١٢٩٦ هجرية .

* * *

٨ – سفر السيد إلى الهند وذهابه إلى لندن وباريس

توجه السيد إلى الهند بعد خروجه من مصر ، واختار الإقامة في حيدر آباد الدكن بغية العمل لاتحاد المسلمين وألف هناك بطلب محمد واصل مدرس الرياضة بمدرسة الأعزة في ١٩ محرم ١٢٩٨ « رسالة نيجرية » باللغة الفارسية ردا على الدهرية ، وهي الرسالة التي طبعت في بمباي ، كما ألف تاريخ الأفغان باللغة العربية . وفى سنة ١٢٩٩ قبل احتلال الانجليز لمصر استقدمت حكومة الهند السيد من حيدر آباد الدكن إلى كلكتا ، وأوقفته هناك حتى نهاية الحملة على مصر ، فاتصل ثمة بالمرحوم سيرسالا رجنك وزير حيدر آباد وسير سيد أحمد خان ، ونظراً لقضية مصر واستياء الانجليز . عزم على السفر من الهند إلى أمريكا عن طريق لندن ، ووصل إلى إنجلترا في حدود سنة ١٣٠٠ ، وبعد أيام قليلة سافر إلى باريس واستضافه السياسي والكاتب الإنجليزي المعروف ولفريد بلنت في منزله بباريس ، فانسجم مع النفر الهاربين من مصر ، وحيث إن ولفريد كان ينوي السفر إلى الهند كتب السيد إلى مريديه بناء على طلب ولفريد نفسه يوصي به . وكان لهذه التوصية – بقول ولفريد نفسه – أثر مفيد جدا ، ويقال إن السيد أقام ثلاث سنوات فى باريس يعمل لخدمة العالم الإسلامى ، وقد أسس في عام ١٣٠١ جريدة « العروة الوثقى » لمقاومة سياسة الإنجليز والأوروبيين واستخلاص العالم الإسلامي من نير الذل والاستعمار وكان رئيس تحريرها الشيخ محمد عبده ، وكانت هذه الجريدة ترسل وتوزع مجانا إلى كل جهات العالم الإسلامي . وقد صدر العدد الأول من هذه الجريدة في ١٥ جمادى الثاني ١٣٠١ هـ . وقد أحدثت جريدة العروة الوثقى – التي كانت بمثابة صور إسرافيل – ضجة هائلة في كل الأوساط الإسلامية ، ونفخت روح النهضة في أجساد الدول الإسلامية ، فاضطربت الدول الأوروبية الاستعمارية وأصابها ذعر شديد خوفا من قيام البلاد الإسلامية المستعمرة عليها . فقلقت من اتساع نفوذ هذه الجريدة وأخذوا يعملون لوقفها وتعطيلها ، وعدم وصولها إلى المستعمرات الإنجليزية بكل وسيلة ، الأمر

الذي أيدته فرنسا من جهتها ، حتى آذنت شمس هذه الجريدة بالغروب ، وكان المحل الذي يعمل فيه السيد مع زميله الشيخ محمد عبده لتحرير الجريدة المذكورة في زقاق حارة سيزومارتل .

وكانت الصحف الفرنسية تنشر بعض المقالات بقلم السيد عن سياسة الشرق ، كانت أغلب الجرائد الإنجليزية تقتطف نبذا منها ، خصوصا في الوقت الذي كان السيد فيه مقيما في باريس ، وكانت مباحثاته مع العالم الفرنسي المشهور « ارنست رنان » حول العلم والإسلام من الأهمية بمكان . وفي ذلك الوقت كانت مسألة المهدي في السودان تشغل بال الإنجليز كثيرا ، وكان السيد على اتصال بالمهدي ، فاتجهت نية الانجليز إلى أن يكون السيد واسطة للصلح بينهم وبين المهدي ، ويبدو أن غلادستون رئيس الوزارة الإنجليزية إذ ذاك وافق على هذه الفكرة ، غير أن وزارة الخارجية الإنجليزية رفضت هذا الرأي ، وبعد استقالة غلادستون من الوزارة واختيار تشرشل وزيرا للهند في الوزارة الجديدة ، دارت المباحثات من جديد بشأن ايجاد اتحاد بين العالم الإسلامي والإنجليز ، ووصل السيد إلى لندن في العاشر من شوال من تلك السنة ، وأقام في منزل مستر بلنت المذكور ، وظل في ضيافته أكثر من ثلاثة شهور ، وتباحث مع تشرشل وسير دروموندولف ، وفي شهر ذي القعدة من السنة المذكورة تقرر أن يسافر السيد مع ولف المذكور إلى إسلامبول ، وكان ولف قد تعين ممثلا لبريطانيا في مصر ، وكان يرغب في أن يتوجه أولا إلى إسلامبول للاتفاق على رأي مع السلطان العثماني بخصوص مصر ، وكان من ضمن ذلك أن يعد ولف بجلاء القوات البريطانية عن مصر ، فلهذا رأى أن وجود السيد معه سيفيده ، نظرا لنفوذه لدى رجال الدولة العثمانية المتحمسين للاتحاد الإسلامي ، ولكنه رغم هذا التصميم سافر أخيرا بمفرده إلى إسلامبول ، فاغتاظ السيد جدا من هذا التصرف ، فارتحل في حدود سنة ١٣٠٣ هـ ، من باريس إلى بلاد الشرق ، عازما على الذهاب إلى نجد وقطيف واليمن ، ليُنشئ هنالك خلافة إسلامية عصرية ، ويعد الوسائل لإيجاد اتحاد بين المسلمين عامة وإيران وتركيا وأفغانستان خاصة .

* * *

٩ - مجيء السيد إلى طهران بدعوة من ناصر الدين شاه

كان السبب في مجيئه إلى إيران هو أن ناصر الدين شاه أثناء سفره إلى أوربا ، سمع كثيرا عن السيد جمال الدين وعن اشتهاره وبعد صيته ونفوذ كلمته ، فرأى أن دعوته تكون مدعاة لفخر الإيرانيين ومباهاتهم في الأوساط الأوربية .

ولكنه ظن أن السيد أفغاني ، ولم يعرف إنه إيراني ، بيد أن الميرزا حسن خان صنيع الدولة برهن للشاه أن السيد إيراني أسد آبادي ، ومال الشاه بقلبه لمقابلة السيد وأمر بدعوته إلى إيران من أي بلد يحل فيه الآن ، وفي الوقت الذي كان السيد قد حزم حقائبه وسار عدة مراحل بغية السفر إلى نجد والقطيف دعاه صنيع الدولة للسفر إلى إيران ، فتقبل السيد هذه الدعوة وتوجه شطر إيران ، عن طريق بلاد العرب ووصل إلى ميناء بوشهر في ١٦ شعبان ١٣٠٣ ، وحل ضيفا في منزل الحاج أحمد خان سرتيب ، فقضى هناك عدة شهور يشتغل بتهذيب الناس وإرشادهم إلى طريق الإسلام والحرية ، واستفاد من السيد الجليل رجال من قبيل : فرصت شيرازى وميرزا نصر الله الذي لقب بعد ذلك بملك المتكلمين ، وفي شهر ذي القعدة ١٣٠٣ هـ ، سافر إلى طهران حسب دعوة ناصر الدين شاه فاتجه من بوشهر إلى أصفهان ، فأبرق ظل السلطان الحاكم العام في أصفهان بخبر وصول السيد إلى البلاط الملكي بطهران ، راجيا الإذن باستضافته عشرة أيام في أصفهان ، فنزل السيد هنالك في منزل أحد أصدقائه (لا أذكر اسمه) وكان يوصي ظل السلطان كل يوم بنشر العلم والثقافة وإقامة العدل والعمل على رقي البلاد ، وبعد عشرة أيام سافر من أصفهان إلى طهران ، فى ضيافة حاكم « يزدوكاشان » المدعو سهام السلطنة مصطفى خان ، وأرسل برفقته نفرا من ملازميه ليكونوا بخدمته إلى طهران ، وقدم السيد إلى طهران في ٢٢ ربيع الثاني ١٣٠٤ وأقام في منزل الحاج محمد حسن أمين الضرب الذي كان أحد أصدقائه .

ولما علم العبد الفقير كاتب هذه السطور (المرحوم الميرزا لطف الله خان الأسد آبادي ابن أخت السيد) بدعوته إلى إيران عن طريق أصفهان وشيراز ، عزمت على زيارته في تلك السنة ، وعلمت بوصوله إلى أصفهان ، فاستدعاني ظل السلطان واستفسر مني عن بعض المعلومات ، ثم سافرت من أصفهان بعد ستة أيام إلى طهران للتشرف بزيارته ، واتفق أن كان الشاه ناصر الدين قد استدعى ذلك الفيلسوف الأعظم للإسلام يوم قدومي إلى طهران ، فحظيت في عصر ذلك اليوم بزيارته وقبلت يده ، وكنت أستفيد من حضرته دائما حتى اليوم الذي سافر فيه إلى أوروبا . أما قصة ذلك السيد العظيم وقدومه إلى طهران فتتلخص فيما يأتي .

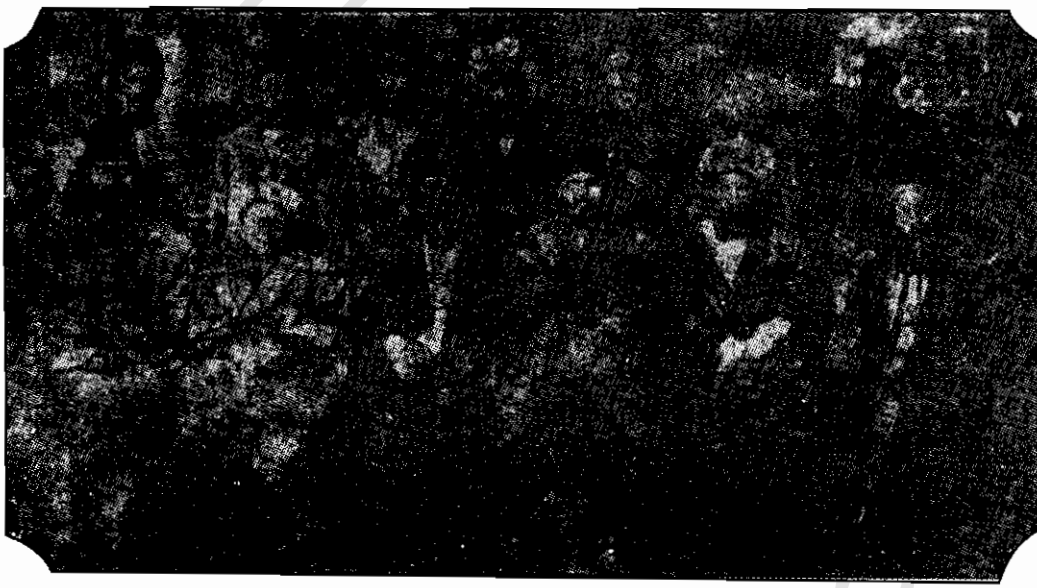

السيد جمال الدين في لباس العلماء الإيرانيين وهو الشخص الثالث من اليمين والواقف خلفه ابن أخته ميرزا لطف الله خان مؤلف هذا الكتاب

السيد جمال الدين في لباس العلماء الإيرانيين وهو الشخص الثالث من اليمين والواقف خلفه ابن أخته ميرزا لطف الله خان مؤلف هذا الكتاب

يقول ناصر الدين شاه عند مقابلته للسيد : إني مسرور بقبولك الدعوة وتجشمك متاعب السفر إلى إيران ، كما أني مسرور بلقائك ، وإني أعترف بشأنك بأي صورة تكون فيها ، كما أني أستطيع أن أفخر على الملوك بقيام فيلسوف مثلك في بلاد إيران ، استفادوا بنتيجة علمه وفضله وحكمته في البلاد الأجنبية الأخرى ، وأن علماء وفضلاء الأجانب يعترفون بفضلك وعلمك ومقامك ، وإني مطلع على تلك الخدمات التي قمت بها نحو الإسلام والمسلمين في مصر والهند وأفغانستان وتركيا والأقطار الأوروبية ، والعجب من أنك بمفردك تستطيع القيام بكل هذه الأعمال العظيمة ، ويؤسفني أن تستفيد الشعوب الأجنبية من ثمرات أعمالك ، ويبقى بنو وطنك محرومين منها ، فقل لنا ما الذي يجب أن نعمله لتعمير إيران ورقيها ، وما أنجع الوسائل التي نرقي بها إيران ؟! .

فأجاب السيد : أستطيع أن أفخر بنفسي بأن أري عاهل إيران قد استيقظ من سباته العميق وأخذ يفكر في تعمير البلاد ورقيها ويثق بي . نعم إنني إيراني أسد آبادي ، وإن كافة العلوم بحمد الله مخزونة في صدري ، فلا تنظر إلى وحدتي وصغر جسمي ، فإني أستطيع أن أطمس جبل دماوند العظيم هذا بقبضة يدي الصغيرة ، فأينما كنت لا أبغي إلا حفظ الجامعة الإسلامية ورقي المسلمين واستقلال بلادهم ، فبقدر ما أشعر بالنوايا السلطانية الخيرية أبذل ما استطعت الجهد لمؤازرتها وتنفيذها . إن خراب إيران وذل وشقاء الإيرانيين التعساء تعود إلى الذات السلطانية نفسها » .

ودلل بالدلائل الواضحة على كل العيوب للشاه ومنها أن الشاه له ثمانون زوجة لكل منها كثير من الخدم ، وينفق على كمالياتهم ما يعادل نفقات المملكة ، وصفوة القول إنه عرض العيوب من جهة ، وطرق الإصلاح من جهة أخرى ولكن يجب ألا تكون الإصلاحات على هذه المبادئ التي يسيرون عليها ، أي بتغيير الصورة والظاهر وإبقاء المفاسد الجوهرية على حالها .

فأثرت كلمات السيد في ناصر الدين شاه أيما تأثير ، وتقبل مقترحات السيد كلها كما تعهد بالإصلاحات الإدارية ، ثم قابله صنيع الدولة للمرة الأولى مقدما له لقب « اعتماد السلطنة » وكلفه بقبول منصب رئاسة الوزراء ورئاسة دار

الشورى ولكنه رفض ذلك ، وقال : « إني لم أطلب ولن أطلب الرئاسة في الدنيا أبدا ولا أبغي ولم أكن أبغي غير تربية المسلمين ورقي الوطن ، ولا أقول إلا ما أراه لازما وجديرا ، فلينظر الشاه وعقلاء البلاد إلى ما اقترحته بنظرة صائبة دقيقة ، ثم يقروا كل ما يجدونه صالحا ويأمروا بتنفيذه . فوافق ناصر الدين شاه على ما قاله السيد ، وأمر أن يجتمع الوزراء والرؤساء والأعيان والتجار والوجوه في حضرة السيد ليتخذوا الترتيبات اللازمة لتنظيم مصالح الدولة ، ويدونوا قانونا خاصا بذلك ، ثم يجتمعوا كلهم بعد عدة جلسات لامتثال أوامر السيد .

وقد ذاع الحديث عن هذه الأمور في كل ناد ومحفل ، ولم يكن بين العام والخاص من أهل طهران سوى هذا الحديث ، وكان السيد بصراحته المعهودة وجرأته المعروفة يتكلم في كل مجمع ومجلس عن لزوم الإصلاحات ، والقيام في وجه الاستبداد دون خوف أو وجل ، وكان يرصع الكلمات الناصعة بلفظ الحرية والحضارة في كل مناسبة . وأقدم على إلقاء المحاضرات وإيراد العظات ونشر المقالات لدي العلماء والأعيان والأكابر والتجار حسب ما تقتضيه البيئة في طهران ، إلا أن تلك الكلمات النارية لم تؤثر في القلوب الصلدة إلا قليلا ، ثم إنه نظرا لتنغص عيش ناصر الدين شاه وخوفه مما يمكن أن تؤول إليه الحال والتبديل الكبير الشامل الذي تستلزمه الإصلاحات الإدارية ، ولوجود بعض الخونة من الوزراء الأنانيين ، ونفر من علماء السوء الماديين – ممن يستفيدون من جهل العوام دائما – من الذين صاروا يدا واحدة مع بعض الأيادي الأجنبية ، وقاموا يحركون ويغالطون ، وأرادوا هدم وطننا العزيز بدافع الحسد وحب الأثرة والأغراض الشخصية ، فرضوا بإطاعة الأجانب ، فبادروا بالخصومة وأخافوا ناصر الدين شاه بإلقاء التهم المغرضة ، خشية أن يستقر أساس الحرية والدستور والعدل في إيران وأن يقضى على شخصياتهم الخبيثة العاطلة . فاستطاع أولياء الأمور في الدولة وخاصة ميرزا علي أصغر خان الصدر الأعظم – الذي كان كلام السيد بالنسبة له كالسم الزعاف – أن يجعلوا الشاه الغر الغافل في وضع يندم فيه على ما قطعه من الوعود للسيد ، وأوغروا صدره عليه وتمادوا في ذلك إلى درجة أن أفهموا الشاه أنه لو مكث هذا الرجل أربعة أيام أخرى في طهران لأمكنه خلعك وجلوسه سلطانا على عرشك ، فبلغت وحشة الشاه بحيث أبلغ سرا الحاج أمين اضرب

المستضيف للسيد ، بقوله : لا أرى من المصلحة بقاء السيد جمال الدين في طهران لعدة أسباب . فقل له أن يرحل إلى خراسان ويمكث هنالك برهة حتى يحين الوقت المناسب لاستدعائه ، فأبلغ الحاج محمد حسن أوامر الشاه للسيد فأجاب قائلا : « الآن نحن في فصل الشتاء وحينما يطيب الطقس سوف أذهب إلى أية جهة أريد ، بعد انقضاء الشتاء واعتدال الجو » .

ثم إنه كتب هذه الرسالة المختصره إلى ناصر الدين شاه وقال بعد العنوان .

« كنت قد عزمت على السفر إلى نجد والقطيف فدعاني صنيع الدولة (اعتماد السلطنة) حسب الأوامر الملكية إلى دار الخلافة البهية ، فأتيت ممتثلا وقد نلت شرف المقابلة بحمد الله . والآن وأنا أنوي السفر إلى أوروبا أرى استئذان الشاه فرضا على نفسي ولا أبغي شيئا سوى استحصال الإذن ، ولا شك أني أرى من واجبي أينما وجدت أن أكون في خدمة مقاصد الشاه السامية ومساعدة أفكاره الخيرية ، التي تكون حافظة للدين وصيانة حوزة المسلمين ، اللهم أيد بآرائه الصائبة هذه الملة ، وسدد بعزائمه الثابتة أساس سلطنة هذه الأمة الغراء والسلام » .

جمال الدين الحسيني

الجواب : « جناب السيد جمال الدين إن غايتنا تحققت من لقائكم ، والآن وأنتم تنوون السفر إلى أوروبا أرى أن ذلك خير ، ولكي تتذكروا ذاتنا العظيمة دائما فقد أرسلت إليكم علبة ألماسية للسعوط ، ونحن أنفسنا لن ننساكم أبداً » .

فجاء ميرزا علي أصغر خان الذي كان حينذاك أمين السلطان بالخطاب وعلبة السعوط ، فضلا عن ألف تومان[1] وخاتم من الماس قدمها من ماله الخاص ، فلم يقبل ذلك الفدائي الأول للإسلام المبلغ ، وقدم الخاتم بمشهد من أمين السلطان إلى محمد حسين أقا ابن المرحوم الحاج محمد حسن أمين الضرب ، وأراد أن يرد العلبة فلم يستصوب البعض هذا . ثم منح العلبة بعد أيام .... .

* * *

(١) يساوي هذا المبلغ مائتي جنية مصري .

١٠ – سفر السيد إلى روسيا ومقابلته لناصر الدين شاه ودعوته للمرة الثانية إلى إيران

عزم السيد على السفر في التاسع من شهر شعبان المعظم من طهران إلى أوروبا ، ونزل ضيفا بمدينة ولادى بالقوقاز في منزل محمد علي خان الكاشاني ، فمكث هناك حتى قدم إليها أمين الضرب من إيران – فسافرا معا إلى موسكو حيث استضافهما نعمة الله الإصفهاني الذي اختير قنصلا لإيران هناك . ثم سافر أمين الضرب إلى باريس ، واتجه السيد إلى بطرسبرج « لينجراد الحالية » ، واجتمع في موسكو بمدير جريدة موسكو المسيو كاتكوف ، وتباحث معه في أمر الاتحاد الإسلامي ضد بريطانيا ، ويروى أن كاتكوف نفسه هو الذي طلب مقابلة السيد إلا أن المنية عاجلت كاتكوف ، وسافر السيد بعدها إلى بطرسبرج حيث لبث عامين ، قضاهما في المباحثات مع مشاهير الساسة من الرجال ، وكانوا محتفين به للغاية . ثم سافر منها إلى النمسا ، واتفق أن قابله ناصر الدين شاه في فينا ، وأعجب بأخلاقه وسلوكه وعلمه ومقامه ، وأبدى لذلك سرورا وغبطة . وعرض عليه السفر إلى إيران للمرة الثانية ، ولكن السيد لم يوافق على هذه الدعوة ، وذكر الشاه بما حاكه الدساسون والمغرضون حوله في المرة السابقة . بيد أن الشاه أقنعه بقبول العرض ووعده بما يرضيه في هذه المرة . ثم أمر الشاه أحد حاشيته ، قائلا له : مد يد العهد وتصافح مع السيد من قبلي . ولكن ذلك السيد العظيم رفض المصافحة مع الرجل قائلا له : إن يد مثلك لا تليق أن تتصافح معي ، لأن يدي حرية بأن يصافحها الشاه ، ولا يحق ليد أن تعاهدني إلا يد السلطان نفسه .

فقدم ناصر الدين شاه يده بنفسه إلى السيد ، وأخذ بيد السيد وأعطاه عهدا أكيدا من كل ناحية ، ثم ألقى كل منهما كلمة فى لزوم مراعاة العهد وتوثيقه .

وكان ناصر الدين شاه يريد تسكين ثائرة الروس الذين كانوا قد ثاروا في تلك الأيام على أمين السلطان بسبب منحه امتياز المصرف الامبراطوري[1] والترخيص للسفن الإنجليزية بالعبور في نهر قارون ، وأراد أن يوفد أحد أفراد حاشيته إلى بطرسبرغ ، ولكن نظرا لخلو الأكياس المملوءة بالذهب والفضة والتي كان بحاجة إلى مثلها لنفقاته ولهوه ولعبه و ... و ... في تلك البلاد ، ولأن الوسائل التي كان يتوقعها لم تكن مهيأة إذ ذاك ، وأن أحدا من رجال حاشيته لم يوافق على قبول هذا الأمر ، فإن كل من كان يكلف بالقيام بالسفر كان يلتمس شتى المعاذير لعدم قبول ذلك . ثم استقر رأيهم على أن يوفدوا بعد العودة إلى طهران مبعوثا من قبلهم إلى بطرسبرغ ، فتقدم حينذاك ذلك العلامة الأوحد مدفوعا بحميته الإسلامية وقبل هذه المهمة ، واستعمل نفوذه الذي كان له في بطرسبرغ لبلوغ هذه الغاية التي كانت تناهض السياسة البريطانية وتعارضها .

وتعهد بالقيام بكل ذلك دون أن يطلب لنفسه درهما واحدا ، ورحل الشاه ناصر الدين صوب إيران والسيد جمال الدين إلى بطرسبرغ ، ثم عاد بعد مباحثاته مع دوكيرس رئيس وزراء روسيا وزميزيف مستشار وزارة الخارجية الروسية وايفناتيف ومدام نويكوف والجنرال ريختز والجنرال ايروتشف ، ناجحا مظفرا إلى طهران .

* * *

(١) يسمى الفارسية « بانك شاهنشاهي » .